

وحدة البحث "دراسات إنشائية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس.

الندوة العلمية الدولية: "المدينة في الخطاب الأدبي" أيام: 5 و6 و7 ديسمبر 2019.

عنوان المداخلة: أبعاد المدينة الغربية في الرواية العربية بين الحلم والذاكرة

رواية "نخب الحياة" لـ "أمال مختار" أنموذجا.

الدكتورة: حميدة قادم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - الجزائر.

ملخص:

شهدت النصوص الأدبية المعاصرة في الفترة الأخيرة حضور تيمة المدينة بشكل ملفت للنظر، باعتبارها فضاءً مهماً يدخل في تشكّل النصّ الإبداعي وبنيته الفنية، إنّها فرع من فروع الفضاء المكاني الذي يسهم في نسج الأحداث السردية وتطورها عبر الزمن الذي يبذل فيه الكاتب. ونظرا لما تتميز به المدينة من خصائص لا نجدها في الريف والقرية، فقد اتخذها الأدباء فضاءً مناسباً لتحركات قلمهم الإبداعي وتحرشه بالمكان الذي يختاره لأسباب لها علاقة بموضوع الحكّي، ولأنّ (وجود الإنسان لا يتحقق إلا في علاقته بالفضاء، فإن هذه العلاقة تدفعه إلى أنواع من المعرفة، لا يقف عند حدودها، بل يتجاوزها إلى امتلاك فضاء أرضي يمارس وسطه فعل الحياة، يتوطن فيه ويتجذر، ويكون لنفسه هوية تمثل كيانه الذي لا يتجزأ منه الفضاء).

وقد عرف المشهد السردّي العربي حضوراً مكثفاً لعدد من المدن والعواصم التي اتخذها الأدباء فضاءً لتطور السرد في نصوصهم؛ هذه المدن ذات أبعاد حضارية ودينية وتراثية وغيرها، ومن المدن العربية نجد: مدينة بيروت، والقدس، وقسنطينة، وحلب، وغيرها، ومن المدن الغربية نجد: باريس، نيويورك، طوكيو، وغيرها. وفي خضم هذا الحضور المكثف للمدن في النصوص السردية العربية، وقع اختيارنا على النصّ الروائي "نخب الحياة" للروائية التونسية "أمال مختار" حيث اتخذت من مدينة "بون الألمانية" فضاءً لأحداث روايتها، هذه المدينة الغربية التي رأت فيها ملاذاً لأحلامها وأمالها وحريتها، فإذا بها تتحول إلى فضاء للسجن الذاتي، فضاء للتلاشي ولحضور الذاكرة التي فرّت منها أول الأمر. وهكذا تجد البطلة نفسها في مدينة يتصارع فيها الحلم والذاكرة.

لذلك فإننا نروم في هذه المداخلة معالجة إشكالية الفضاء الحضاري بين اللحم والذاكرة، وهي إشكالية الفرد العربي الذي فُطر على اللحم خارج حدوده الجغرافية، فإذا بالذاكرة تحاصره في كل مكان وزمان.

مقدمة:

ظهرت المدينة كمفهوم حضاري وشكل جديد منذ الثورة الصناعية، وقد كان لها الأثر الكبير في حياة الأفراد في مختلف المجتمعات العربية والغربية على حد سواء، مثلما كان لها الأثر البالغ في تشكل الرواية كجنس أدبي يستعير أحداثه وشخصياته وفضاءاته من الواقع المعيش.

والرواية النسائية- ولاشك - هي وليدة التطورات الحاصلة في العالم العربي منذ عصر النهضة، وقد لازمت الحركات النسوية التحررية إلى اليوم، فانعكس ذلك التطور على شكل الرواية إن من ناحية البناء، أو من ناحية المواضيع، أو من ناحية المقصدية.

والرواية النسائية العربية بشكل خاص، ظهرت لتحرر المرأة العربية من مختلف آليات الهيمنة التي تتحكم فيها، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى عنصر الفضاء وما يؤديه من فاعلية في تشكل الخطاب الروائي النسائي بحيث تظهر تيمة المدينة باعتبارها فضاء مميزا للرواية المعاصرة عامة، والنسائية خاصة. لذلك فهي تتجلى في أبعاد مختلفة ومتعددة بتعدد الرؤى للعالم التي تصدر عن الكاتبة، فما هي يا ترى أبرز وأهم هذه الأبعاد؟ وما هي دلالتها وعلاقتها باللحم من جهة، وبالواقع من جهة أخرى؟

أولا- علاقة الأدب بالفضاء/المكان:

لا شك أن الأدب ترجمان المجتمع، تتجلى من خلاله حياة الإنسان ومختلف حالاته التي يعيشها من فرح وسعادة وقلق وغيرها، وقد كان الشعر العربي قديما لسان حال المجتمع والحافظ لأنسابهم وتاريخهم، وظل كذلك لفترة طويلة من الزمن، إلى أن ظهرت الرواية كنوع أدبي تميز بطابعه السردى وقدرته على الإحاطة بتفاصيل الحياة العامة للإنسان أكثر من الشعر.

وتجدر الإشارة في هذا المقام أن الرواية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم هي روايات ذات صبغة واقعية أكثر من أي شيء آخر، سعى من خلالها الكاتب إلى التعبير عن القضايا الإنسانية الكبرى التي تشغل فكره، فهي (الرواية) تتكون من جملة العناصر التي تسهم في تشكل أحداثها

وعلاقة شخصياتها بعضهم ببعض، ولعل أهم هذه العناصر جميعا هو عنصر (الفضاء) الذي يعد اللبنة الأولى والأساسية في تشكل النص الروائي، لذلك نجد أن كثير من الدارسين والنقاد قد اهتموا بهذه التيمة وأبدعوا في وصف أهميتها في بناء النص على غرار (غاستون باشلار) الذي خصص بحثا مستقلا في (دراسة المكان) وبين من خلاله جمالياته التي يضيفها على النص، قائلا "أن النقطة الأساسية التي ينطلق منها المؤلف هي أن البيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة، ومركز تكيف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكره ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية، ذلك الإحساس بالجمالية والأمن اللذين كانا يوفرهما لنا البيت القديم."¹

يركز (باشلار) في مؤلفه سالف الذكر، وفي القول أعلاه على تيمة المكان في صيغته الضيقة التي لا تتعدى البيت القديم أو ما أصطلح عليه بمكان الألفة، وهذا المفهوم يتجلى بصورة أوضح عندما نتبعه على مستوى النص الروائي، بينما يصادفنا في ذات السياق مفهوما أوسع وأشمل من مفهوم المكان، وهو الفضاء الروائي، الذي يشبه "كل فضاء فني، يبنى أساسا على تجربة جمالية، بما يعنيه ذلك من بعد أو انزياح Ecart عن مجموع المعطيات الحسية المباشرة، أي أن مجاله هو الذاكرة والمتخيل."²

يتضح من خلال هذا القول أن المكان يتخذ قيمته الفنية في العمل الروائي بحسب قدرة الروائي على منحه طابعا فنيا تتقاطع فيه الذاكرة مع الحلم، فلا يغدو مجرد مكان جامد، وإنما يصبح ذا قيمة جمالية وفنية داخل النص؛ بإمكان هذه القيمة أن ترفع العمل الأدبي أو تحط من شأنه، خاصة إذا أحسن الكاتب اختيار الأمكنة التي تدور فيها أحداث نصه، وهذا ما يضعنا أمام إشكالية أخرى جديرة بالاهتمام والبحث، ويمكن التعبير عنها بالسؤال الآتي: كيف يمكن للفضاء الروائي أن يتحول من مجرد بعد جغرافي إلى مفهوم أوسع ويشمل الذاكرة والتاريخ والحلم والإنسان معا؟ وكيف يمكن لهذا الفضاء أن يصبح دالا أنثربولوجيا يتقصى حياة الشخصيات الروائية بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة؟

تفرق إحدى الباحثات - في هذا الصدد - بين عنصرين مهمين في تشكل الخطاب الروائي، وهما "المكان الروائي، والفضاء الروائي، فالمكان هو الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية، وهو عنصر

¹ - غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص30.

² - نجمي حسن، شعرية الفضاء: المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1

، 2001، ص42.

حكائي قائم بذاته إلى جانب العناصر الفنية الأخرى المكونة للسرد، وهو داخل الرواية ليس واحدا، بل متعددا، يتسع ويتقلص حسب طبيعة موضوع الرواية. ذلك أن اشتغال الرواية على أمكنة متعددة ومتفاوتة (مدينة- قرية- شقة- عليّة- بحر- شارع- ساحة- مقهى...) هو ما يشكل ويؤطر فضاءها الروائي، على اعتبار أم مجموع هذه الأمكنة هو ما يطلق عليه الفضاء الروائي، وعليه فإن الفضاء أوسع وأشمل من معنى أو مدلول المكان.¹

تحاول الباحثة من خلال هذا القول أن تبين الخيط الرفيع جدا الذي يفصل بين المكان والفضاء، وتتحدد من خلاله جملة الأمكنة المتفاوتة بين المفتوحة والمغلقة (بحر، مقهى، قرية...) ويتخذ كل فضاء من هذه الفضاءات أهميته القصوى في تشكل الحدث السردى بحسب رؤية الكاتب، التي يعبر من خلالها عن فكر الشخصيات وتوجهاتهم، ويصبح الفضاء بهذا المفهوم "كيانا حيا ينبض بالحياة، ويلعب دورا كبيرا في تحديد هوية الرواية وموضوعها إذ يؤثر ويتأثر، ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها كما يتفاعل مع الكاتب نفسه ومع القارئ، فهذا هو الفضاء الذي يجذب اهتمام الكاتب."²

وبالرجوع إلى الرواية العربية المعاصرة، تظهر لنا تجليات الفضاء الروائي بما يضمه من أفكار ورؤى خاصة بشخصيات النص السردى، ولعل أبرز هذه الفضاءات التي أثبتت حضورها في الرواية العربية عامة، والنسائية خاصة هو فضاء المدينة، باعتبارها فضاء مفتوحا على الأفكار والعلاقات القائمة بين الأفراد الذين ينتمون إليها، أو يسعون إلى ذلك.

ثانيا- علاقة الرواية بالمدينة:

يعد حضور فضاء المدينة في النص الروائي العربي المعاصر ضرورة فرضتها التحولات التي شهدها العالم العربي بعد الثورة الصناعية، ولما كان الشعر ديوان العرب قديما، فقد اتخذ من الطابع العام لحياة الإنسان العربي نسقا يجسده في بناء القصيدة العربية، ومن ذلك سمي بيت القصيدة بيتا، واتخذ في شكله وهيكله نسق البيوت والخيام التي يسكنها العربي، واتخذوا في العروض اسم الوند نسبة إلى وند الخيمة، كما اتخذوا الحياة القاسية التي يعيشها موضوعا لشعرهم.

¹ - خديجة البوعزاوي، شعرية المدينة، طنجة في المدينة المغربية، منشورات سليكي أخوين، ط1، 2017، ص07.

² - صالح ولعة، البنية المكانية في رواية (كراف الخطايا) دراسة سيميائية، ملتقى إشكالية الأدب في الجزائر، 26-28 أبريل 2005، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة.

بناء على ما سبق، فإنه لا ضير ولا مناص من إقحام المدينة في النصوص الروائية المعاصرة، لتعبر وتجسد حال الإنسان وعلاقته بهذه المدينة حديثة النشأة، وانعكاساتها على حياته وعلاقاته الاجتماعية وحالته النفسية "ومما لا شك فيه أن المدن انبثقت تعبيراً عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية، كما تأثرت بمختلف التقاليد والقيم والأفكار المنظمة للعلاقات الاجتماعية..."¹

وفي هذا الصدد لابد من الإقرار بأن "الذائقة البدوية التي أنتجت قوالب النظم الشعري في الجاهلية، لا تستطيع أن تفرض نفسها على ابن المدينة في القرن العشرين، مع كل ما أتى به من متغيرات حاسمة شملت كل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان. ولم يستطع أن ينغزل عن هذه المتغيرات حتى أولئك المنفيون في أعماق الصحاري ومجاهيل الغابات العذر وظلام تخوم القطب."²

يؤكد هذا الشاهد أن النص الأدبي شعراً كان أو نثراً يتأثر بالراهن الذي ينشأ ويتكون فيه، ولما كانت المدينة أعظم إنجاز شكله الإنسان المعاصر فمن الطبيعي أن يكون حضورها في النصوص العربية النثرية على غرار القصة والمسرحية والرواية أكثر من غيرها، على اعتبار أن المرحلة الماضية كانت تعتبر الشعر ديوان العرب دون منازع، واليوم فإن الرواية تستأثر من بين جميع الأجناس الأخرى، بقدرتها على اكتناه معنى المدينة، أو فكرتها الجوهرية، تركيباً، بوصف طريقة التركيب سيلاً لإنتاج المعنى، فالرواية قائمة على أساس التنوع والتراكيب اللذين يسمان مدينية أي مدينة."³

ويندرج الاهتمام بتيمة المدينة في الأدب العربي المعاصر انطلاقاً من وعي الأديب بها، وبأهميتها في تشكل المسار السردي للشخصيات، ويكون الاهتمام بالمدينة التي يختارها الكاتب بناء على أهميتها ومكانتها في ذاكرته أو في متخيله، وغالباً ما تكون المدينة محل الاهتمام لها علاقة بحادثة ما عانى منها الكاتب باعتبارها فضاء يسكنه ويحقق من خلاله أحلامه، كما قد تكون فضاء يلجأ إليه من أجل القيام بالتغيير أو الوعي بمجال الحرية التي يبحث عنها، ذلك أن "لكل مدينة شخصيتها وروحها

¹ - حسين عبد الحميد، أحمد رشوان، مشكلات المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2005.

² صلاح صالح، المدينة الضحلة، تثريب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة السورية، وزارة الثقافة، دمشق 2014، ص 37.

³ - المرجع نفسه، ص 38.

المميزة لها عن غيرها من المدن الأخرى تبعا لتمييز عادات وتقاليد وحاجيات ساكنيها ونشاطاتهم وحتى موقعها الطبيعي انغلاقا وانفتاحا.¹

لذلك لم يقتصر الاهتمام بموضوع المدينة جغرافيا فحسب، بل إن كثيرا من الدارسين والنقاد تناولوها من زوايا مختلفة، ولم يقتصر ذلك على توظيف المدن العربية فحسب، بل تعدت حد التوظيف المبالغ فيه للمدن الغربية، التي غالبا ما يلجأ إليها الكاتب لأسباب متنوعة، لعل أهمها هو متخيل الهجرة الذي طغى على فكر الفرد العربي بصفة عامة، أو اللجوء إليها كنمط من أنماط التمرد على الأنا والهروب إلى الآخر الذي يمثل التحضر والعلم والتقدم.

تصبح المدينة الغربية وفق هذا المنظور ملاذا للفرد العربي، ومثالا للقيم والحرية، والتقدم على عكس المدينة العربية التي تتجلى بوصفها تيمة مضطهدة يعاني فيها الفرد الفقر والكبت والتخلف - حسب وجهة نظر الكتاب - وهذا المفهوم السلبي الشائع هو الذي أسهم في حضور المدينة الغربية على حساب المدينة العربية، خاصة في الرواية النسائية، فهل يعني هذا أن رؤية المرأة العربية للأخر تختلف عن رؤية الرجل؟ وهل يمكن أن تكون هذه الرؤية صحيحة انطلاقا من النصوص السردية النسائية؟ وهل تمكنت الكاتبة العربية من تحقيق مبتغاها من وراء ذلك التوظيف؟ أم أن فضاء المدينة الغربية يظل فضاء رحبا يتأرجح بين الحلم والحقيقة؟.

هذا ما سنحاول أن نكشف عليه من خلال رواية "نخب الحياة" لأمال مختار التي لجأت من خلالها إلى توظيف معالم مدينة بون الغربية (الألمانية) بأبعادها المختلفة توظيفا تنبيه فيه وتتلاشى بين الحلم والذاكرة.

ثالثا-أبعاد المدينة الغربية في رواية "نخب الحياة":

1-المدينة الغربية فضاء للحرية:

تتخذ المدينة في النصوص الروائية النسائية خاصة أبعادا مختلفة، تسعى من خلالها الكاتبة إلى تقديم مفهوم جديد عن حياة المرأة العربية، وطموحاتها وأحلامها، وتتجلى هذه المفاهيم جميعها من خلال

¹ - قادة عقاق، دلالة المدينة في الشعر العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001. ص19.

فضاء المدينة الذي تختاره لأحداث شخصياتها، وهي في الغالب الأعم مدن أوروبية على غرار باريس وفيينا ولندن وغيرها.

وتطل علينا رواية (نخب الحياة) للتونسية (أمال مختار) حاملة لهذه الأبعاد المختلفة، وتتجسد من خلالها المدينة كفضاء للحرية ببعديها الشخصية/الفكرية والجسدية/الجنسية في قالب سردي تفتنت الكاتبة من خلاله في المزوجة بين الماضي والحاضر، وبفنية عالية يتداخل السرد فيها بين الحلم والذاكرة بحثاً عن فضاء أكثر حرية.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى نقطة مهمة ، وتخص الفضاءات التي تلجأ الكاتبات إلى توظيفها باستمرار، ليتضح أنها في أغلبها مدن غربية ذات تاريخ عريق ومميزات خاصة بالنسبة للآخر، وهذا ما يحملنا على التساؤل: لماذا تكون الوجهة غربية كلما استحضرننا مصطلح الحرية؟ هل يعني ذلك أن الفضاء العربي فضاء مقيد؟ أم أن الحرية التي تبحث عنها المرأة العربية لن تجدها إلا في فضاء الآخر الغربي؟ هذا ما سيتم الكشف عنه من خلال النص موضوع الدراسة.

أ- الحرية الشخصية: طالما التصق مصطلح الحرية بالآخر الغربي في منظور الفرد العربي، عامة والمرأة خاصة، وقد يعود السبب في ذلك راجع إلى تأثيرات الفكر الاستعماري وما أحدثته النهضة في العقول العربية، بحيث جعلتها تفكر دوماً ودون تردد أن الآخر يساوي الحرية، وأن الآخر يساوي الحضارة، وأنه يمثل الحضارة والعلم والتقدم، بينما ينتشر المفهوم المضاد تجاه البلاد العربية.

من هذا المنطلق، تظهر رواية "نخب الحياة" للتونسية (أمال مختار) وقد اختارت لها فضاء حضارياً مدينياً يتجلى في مدينة (بون الألمانية) وتظهر بطلتها وهي تحاول أن تحرر ذاتها من قبضة العادات والتقاليد العربية، وذلك من خلال رحلتها الوجودية التي قررت أن تخوضها لوحدها، بعد أن رفض حبيبها مرافقتها، لتصبح (بون) بنظر البطلة (المدينة الفاضلة) أو (اليوتوبيا) كما يسميها (أفلاطون) التي تحيل إلى مفهوم السعادة المطلقة، والحرية المطلقة كما كانت تراها البطلة (سوسن عبد الله) في الرواية.

إن فكرة المغامرة والرحلة الوجودية واختيارها لمدينة غربية تعيش فيها أحلامها في حد ذاتها هي تحرر وكسر لكل القيود والتقاليد والثوابت التي تحكم مجتمعنا العربي، وهكذا تصبح في نظر الكاتبة "ليست الأماكن المفتوحة والمنغلقة التي يصادفها السارد أو البطل وهو يؤسس لموضوعه، وإنما المدينة

هي كل مالا تراه عيننا المجردة، هي فهمنا للمسافة التي تفصلنا عنها، أو هي إعادة إنتاج لما هو كائن وفق ما هو ممكن، حيث تتكلف اللغة بملأ الغياب، ونقل الشعور بالنقص إلى امتلاء.¹

تنطلق بطللة الرواية من تونس مسقط رأسها نحو مدينة (بون) الألمانية التي تمثل بالنسبة لها فضاء لممارسة حريتها الشخصية في لبسها وطعامها وشرابها، فضاء تتحرر فيه من العادات العربية والثوابت الدينية، وتمجد فيه صفة الإنسان لا غير، لأنها أرادت أن تجرب الحرية المطلقة، المتعة المطلقة لذلك نجد أن حضور هذه المدينة يأتي على عدة أوجه، وفي صور مختلفة ومتناقضة في الآن معا. فكانت "هذا المدينة شأن نظيرتها باريس مدينة للعشق، في شتى طقوسه وألق مناخاته وعنفوان حالاته، ومدينة للحرية الشخصية وبالأساس الجنسية، ومدينة الجمال الطبيعي، ومن خلال مناخاتها المطرية ومناظرها الثلجية ومدينة التسكع والضياح، وقد عامت الرؤية وغاب الأفق."²

إن هذا التنوع الذي يحضر في رواية (نخب الحياة) هو الذي جعل منها مدينة متفردة بأمزجتها المتنوعة، جعلت البطللة تعيش في حالة بين المد والجزر، بين الحلم والذكرى، بين الفرحه والألم، وبين الضياح والتلاشي. وتظهر المدينة الأوروبية ملاذا لممارسة هذه الحرية باعتبارها فضاء للتحرر والتحضّر، تقول البطللة: "كان يجب أن أخوض التجربة بعيدا عن الهنا الذي أصبح الآن هناك.. كان يجب أن أكتشف العالم على ظهر السفر والصدفة، بحثا عن ذلك الشبه بيني وبين الإنسان أينما كان، كان يجب أن أتسكع، أن أنام على بلاط المحطات والأرصفة، أن أتعرف إلى أناس عابرين في زمن عابر، كان يجب أن أعربد، أن أرتطم بوهم الحضارة، أن أكتشف حقيقة الإنسان، طبيعته التي تحت أشلاء الملابس والثقافة والقانون."³

تصرح البطللة أن التحرر الذي تطمح إلى تحقيقه لا يمكن أن يكون إلا في الضفة الأخرى، هي تلك التي عبرت عنها بمدينة بون الألمانية التي تجتمع فيها معالم الحرية، ومعالم الإنسان لتصبح نموذجا خاصا للحضارة والثقافة والقانون، فنجد الساردة تتفنن في توصيفها ومنحها جوا من الشاعرية، وفي هذا

1 - عماد الوردني، تمثيل الجسد والمدينة في رواية "جسد ومدينة" فتنة الإبداع والسؤال النقدي في تجربة زهور كرام، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، دط، ص8.

2 - بوشوشة بن جمعة، شعرية المدينة الأوروبية في الرواية النسائية المغاربية، الحياة الثقافية، العدد242، جوان 2013، ص40.

3 - أمال مختار، نخب الحياة، ص19.

التوصيف حضور لهوية الآخر وتقاليد وفكره، وتمثل مدينة بون واحدة من المدن الأكثر شهرة في العالم نظرا لما يتميز به تاريخها، فهي المدينة العريقة التي ولد فيها الموسيقي العالمي (لودفيغ فان بيتهوفن) وهذا ما جعلها مثالا حيا للموسيقى والإحساس، وأكسبها شاعرية في النص، بالإضافة إلى تراثها العريق من ناحية الآثار الموجودة فيها ما جعلها قبلة المسارح العالمية ومنارة المتاحف على غرار متحف ألكسندر كوينج المتخصص بعلم الحيوان، ومتحف الراين الإقليمي المتخصص بعلم الآثار، أما عن المعالم السياحية فلا يمكن تجاوز الإشارة إلى منزل بيتهوفن، وحدائق بون النباتية وجامعة بون وغيرها.

إن هذا الزخم الفني والعمراني الذي تشهده مدينة بون كفيل بأن يجعل منها مدينة العلم والحضارة والفن والموسيقى، وما تحدثه هذه المعالم جميعها من شاعرية هو ما جعل الكاتبة تختار هذه الواجهة دون غيرها من المدن الشهيرة على غرار باريس مدينة العشاق، ولندن مدينة الضباب وفيينا وغيرها..

وهكذا تتبدى مدينة بون بشاعريتها ، بهدوئها وموسيقاها، بالحلم الذي يحملها إلى عالم غير العالم الذي تريده لتصبح هذه المدينة العصية عن الفهم بتناقضاتها نسخة عن الكاتبة، وذلك أن "الكاتب حين يختار فضاء معيناً ويصبغه بلون ما، ويفرشه بأثاث دون آخر... فإنه يرمي إلى سبر أفكار ورصد رؤى عن عصر خاص، أو عن عادات لشخص محدد، وهذا ما يحتم علاقة منسجمة بين عنصري الفضاء والشخصية، فالأثاث مثلا يدل على شخصية صاحبه، وعلى انتمائه الاجتماعي والفكري أيضا، فما بالقصور يختلف عما بالأكواخ، ولكل شحنته الدلالية".¹

وهنا تكمن أهمية الوصف في نص (أمال مختار) حيث تجعلك تتجول في شوارع بون وتشم رائحة الأمكنة والحانات، بل وتحملك بخيالك إلى العيش فيها مدة قراءتك للنص، فتتجول مع شخصياتها، وتجلس إليهم على طاولة الطعام، وتدخل معها الفندق والغرفة، وتتجاذب أطراف الحديث إلى أحدهم، تقول: "هناك في مدينة الهدوء والخضرة والجمال، وقانون الطبيعة سيد النفس سأسير كما كنت أفعل قديما، سأسير حتى تتعب قدمي، أخلع حذائي وأواصل السير على الإسفلت المبلول...تساقطت على جسدي أدران الماضي، وأضاءت بشرتي بنور انعكست أشعته على الطريق المبللة لوحة من الألوان والظلال جعلت هذا المساء الشتائي في "بون" مساء مختلفا عن تلك المساءات الربيعية القديمة".²

¹ - منيرة شرقي، الأبعاد الفنية والإيديولوجية للفضاء في رواية الزلزال للطاهر وطار، مجلة النص، أم البواقي، ص215.

² - الرواية، ص16، 15.

ب- الحرية الجنسية: تتجلى تيمة الحرية الجنسية في رواية نخب الحياة في أكثر من مقطع سردي، يحيلنا إلى تحول فضاء المدينة (بون) من كونه فضاء للعلم ومنازة الفن والموسيقى والجمال، إلى كونه فضاء للفساد الأخلاقي والعهر، وهكذا تتحول المدينة من القداسة بعلمها وتحضرها إلى الدنس الذي يحولها إلى فضاء للقذارة والجنس.

ولعل أكثر ما ركزت عليه الكاتبة في هذا السياق هو تحول اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) إلى الديستوبيا (المدينة الفاسدة) ويحدث ذلك بسبب التحرر المبالغ فيه الذي تعيشه أكثر المدن الغربية، حيث تتعدى هذه الحرية العلاقات الحميمة وممارسة الجنس بين الرجل والمرأة، إلى العلاقات غير الطبيعية/الشذوذ الجنسي/القدر، هذا من جهة، وفساد الأخلاق حد الإدمان على المخدرات من جهة أخرى، ولعل أكثر ما يثير الاشمئزاز في هذا الموضوع هو أن تصدر هذه الحركات والتصرفات الشاذة عن الجنس اللطيف الذي لم يعد لطيفا بخرقه قانون الطبيعة(علاقة نيكول وسوزي الشاذتين).

تصبح المدينة الغربية (بون) في هذا السياق فضاء للآثام والتجاوزات التي جعلت البطلة تعيد التفكير في مفهوم الحرية، وتعيد النظر في تحديد الفضاء الذي يمكن أن تتجلى فيه. إذ لا يمكن أن تتقاطع الحرية مع فوضى الجنس وفوضى الأخلاق التي تحدث في المدينة الفاسدة/الديستوبيا¹، فبعد تطور الحياة، وظهور المدينة اعتبرت "فضاء جديدا ساهم في تجريد الإنسان من بعض آدميته وحولته إلى ما يشبه الآلة، بسبب نمط الحياة الذي باتت تفرضه على ساكنتها".² تقول البطلة "في الملهى، جلسنا في زاوية بنصف إضاءة، طلبوا بيرة وطلبت ويسكي، رقصت سوزي ونيكول في البداية، ثم طلبت مني سوزي رقصة. لم أتحمس، لكنها سحبنتي، تحولت الموسيقى من الصخب إلى الهدوء وتعانق الجميع في الحلبة واحتظنتني سوزي وضغطت على ظهري حتى كادت تغرس أظافرها في لحمي وتأوهت، أقلت برأسها على كتفي، وقبلت رقبتني وانسابت تتسلق عنقي حتى اقتربت من شفتي. انسحبت، عدت إلى مكاني وظلت رائحتها في أنفي".³

يمثل المقطع السردي أعلاه فوضى الأخلاق التي يعيشها الإنسان في المدينة الغربية وتأثير هذه الأخيرة عليه مما أدى به إلى القيام بمحظورات تتنافى مع طبيعة الجنس البشري، فهي(المدينة)"وجه

1 - Dystopia مأخوذة من اليونانية بمعنى المكان الخبيث.

2 - خديجة البوعزاوي، شعيرة المدينة، ص28.

3 - الرواية، ص66،67.

الإنسان الراحل عن جنسه (...). فكلما تمدنت أدوات الحياة استوحش الإنسان...ومن هنا كانت المدينة باطلة وكل ما فيها باطل.¹ وهكذا تحملها أبعادا سلبية تبين من خلالها وعيها بفوضى الجنس من خلال علاقة (سوزي ونيكول السحاقيتين) وتعدد العلاقات غير الشرعية وغير الطبيعية، وهذا ما يحط من قيمة المدينة ودينها.

في (بون) تصبح كل العلاقات الحميمة مباحة، فالإنسان في الضفة الأخرى يعيش من أجل إشباع ذاته ورغباته، وتحقيق النشوة في فضاء الفوضى والعنمة والجنس، دون خوف من المجتمع، ولا من القانون فكلاهما يبيح ذلك في أوروبا، ويمتد مفهوم الحرية لديهم حد الخروج عن الطبيعة، ولعل هذا ما شجّع بطلة الرواية على التفكير في خوض تجربة المحذور واللاعادي واللاطبيعي، فبمجرد أن تعرف عليها الشاب الفرنسي رافقته إلى غرفته في الفندق، تقول: "اخترقت يده الصمت الذي ثقل، وأمسك يدي. ضغط عليها، ثم رفعها وقبلها أعجبتني الحركة وتركت ليدي الحرية تعبت بأصابعه، ترك كرسيه وجثا على ركبتيه أمامي وراح يقبل يدي، ويضع رأسه الأشقر في حجري ويتشمم ملابسي ورائحتي، تغير صوته وهو يتأوه ويردد همسا: "ما ألد رائحتك؟"²

يعبر هذا النص المقتبس عن انسجام البطلة وتماهيها في فوضى المدينة التي تبيح المحذور، فلم تتردد لحظة في العبت مع أول شاب يطرق غرفتها دون أن تعرف عنه شيئا، وتصبح المتعة والعبت حالة مؤقتة تعيشها البطلة في مدينة الآخر دون أن تشعر بالخجل ولا بتأنيب الضمي، مما يغيب كل القيم والمبادئ والثوابت الدينية والعرفية العربية ولا يبقى منها إلا الرغبة في تجريب كل المحظورات.

لم تكن شخصية (سوسن) الوحيدة في الرواية التي أرادت اللجوء إلى الآخر لتتحرر من قيد العروبة وقيمها، ولتجرب الحياة بعيدا عن الهنا الذي أصبح الآن هناك، بل نجد الموقف نفسه يتجلى من خلال شخصية النادل المغربي (عبد اللطيف) وهو يجيبها عن سؤالها، منذ متى تعيش هنا؟ فيقول: "أعيش هنا منذ زمن وكفى، لا أريد أن أتذكر المغرب وأهل المغرب والعرب، لنلُّه فقط ونعبث. إن الحياة هنا متعة وحرية."³

1 - مناف منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1978، ص 43.

2 - الرواية، ص 45.

3 - الرواية، ص 63.

يلخص (عبد اللطيف) الحياة في بون بالمتعة والحرية، فالمتعة تطال كل المحظورات والممنوعات والحرية تمس الانفلات والتخلص من كل ما يقيد الإنسان (قانون، عرف، مجتمع...). وتعمق الكاتبة في وصف عهر المدينة وفسادها من خلال تصرفات الفتاتين السحاقتين، وإدمانهما للمخدرات، ولعل الغريب في الموضوع أن هذه التصرفات كانت فيما سبق حكرا على الشباب، ولكنها في هذا النص الروائي تتعلق بالفتيات، مما يزيد سوء هذه من الظاهرة، وإن كانت حاضرة في فضاء المدينة الغربية بشكل عادي، تقول: "(...) استلقت نيكول وراح عبد اللطيف يداعبها، بينما تربعت سوزي وفتحت حقيبتها الضخمة والغامضة، سحبت قرطاسا أخذت ذرة من مسحوق أبيض، نثرتها على ظهر كفها واستنشقت. تسالت نيكول من أحضان عبد اللطيف، تربعت إلى جانب صديقتها، قربت يدها، استنشقت. ثم واصلت تستنشق جسد سوزي وتشم..."¹

تظهر الرواية صورة مقرزة ومنفرة لحالة الشابتين وهما تمارسان العبث في أقصى صورته، وفي حضرة جمع من الأصدقاء، إنه العبث المجنون، المضاد للطبيعة وللإنسانية، تتعهر المدينة وتتحول إلى مومس كل العلاقات معها مباحة، فجأة يغيب الفن والعلم والحضارة والجمال، ولا يبقى منها سوى العبث والجنون والمحذور.

ومع هذا الحضور المكثف لتيمة المدينة باعتبارها فضاء للحرية الجنسية وحتى الفكرية، استطاعت الكاتبة أن تثبت نسفا مشفرا يوحي بنفور النفس البشرية من العبث المطلق والحرية المطلقة، وتظل المدينة الغربية فضاء لممارسة المحذور دون قيود بالنسبة لقاطنيها، ولكن تختلف رؤية العربي للحرية، فهو يحافظ على شيء من أصله مما توفرت الإغراءات، فلا حرية مطلقة، وتظل بقايا الإنسان الفاضل تشع ولو بشكل خافت، تقول سوسن البطلة "حتى هنا، في بون حيث كنت أعتقد أن الحرية كاملة اكتشفت أن الأمر ليس كذلك، وبدأت أشك في وجود الحرية كاملة شيء ما جئت به من هناك مني من أن تكون حرיתי كاملة هنا، شيء ما لا أقدر على انتزاعه أو قلعه مني مهما فعلت وأينما كنت! ذاك هو الشيء الذي مني من تجريب العبث مع سوزي ونيكول، هو الذي مني من الاقتراب من الشاب الفرنسي، هو الذي تناني عن المضي إلى أقصى العبث."²

¹ - الرواية، ص 80.

² - الرواية، ص 85.

تصرح البطلة من خلال هذا المقطع السردي بأن المدينة على الرغم من فاعليتها في شخصية الإنسان وتأثيرها عليه، تظل فضاء نسبيا ، تتعدد فيه الأبعاد وتختلف باختلاف قناعات الفرد ورؤيته للعالم وللأشياء. وذلك ما عبرت عنه بقولها(شيء ما جئت به من هناك منعتني من أن تكون حريتي كاملة هنا...)

2- المدينة الغربية فضاء للتلاشي والضياع:

تمثلت تيمة الضياع والتلاشي في نص (أمال مختار) بشكل واضح وجلي، وتشبه هذه التيمة بضياع الإنسان وغريته خارج أرضه، وتصبح المدينة الغربية - على الرغم من شساعة المكان وهدوئه وانتظامه- فضاء للتيه والتشرد بالنسبة للآخر العربي، وهذا ما عبرت عنه بطلة الرواية بقولها "الثامنة مساء. منذ خمس ساعات وصلت المدينة، ماذا فعلت طوال هذه الساعات؟ أين حققتي؟ أين أوراقى وما يثبت لهم أنى أنا أنا؟ أين أموالى القليلة؟ أين عرائى؟"¹

يتجلى الإحساس بالتية والضياع وفقدان الهوية في شخصية البطلة منذ الساعات الأولى التي تحط فيها بمدينة بون الغربية، في مكان لا تعرف فيه أحد ولا أحد يعرفها، ولعل هذا أبرز ما يميز المدينة بصفة عامة، فهي فضاء واسع متحضر، يتسارع فيه الزمن على غير العادة، ويغيب فيه الإنسان ويضمحل، إنه الفضاء الذي يفقد فيه الشخص هويته واسمه، فلا أحد يناديه فيه باسمه، الجميع غرباء، كل الناس منشغلة عن بعضها البعض، ومع ذلك يصر الواحد منا على اكتشاف ما فيها، ويخوض المغامرة رغم القلق والخوف، تقول البطلة "عدت غريبة في بون، ولكن كيف أكون غريبة في بون؟"² وتضيف: "لم أكن لأقدر موقعي في المدينة تحديدا ولم أكن لأعرف كيف أتصرف كان الإحساس بالتية يلف قلبى. لكنى لم أجزع وتهايات لمتعة الضياع والتية في الغموض."³

وعلى الرغم من الاغتراب الذي يلوح في الأفق بالنسبة للبطلة لم تتراجع ولم تتوقف عن فكرتها، كل ما حولها كان مخيفا، وجودها بمفردها في مدينة غريبة ، وجهلها بلغتها الألمانية، وإفلاسها ماديا، ولكنها أبدا لم تفكر في العودة، أترأه إغراء المدينة الغربية الذي منحها هذه الشجاعة والثقة لأن تكمل رحلتها؟ أم تراه تحديا لحبيبها إبراهيم؟ أو ربما يكون شيئا آخر غير هذا!!؟

1 - الرواية، ص 25.

2 - الرواية، ص 29.

3 - الرواية، ص 30.

3- المدينة فضاء للحلم والذاكرة:

تتجلى هذه الثنائية بوصفها بعدا من أهم أبعاد المدينة الغربية من خلال المحطات التي كانت تتوقف عندها البطلة، تارة في الحلم وتارة أخرى حين تحاصرها الذاكرة من كل مكان، فنتسى ما جاءت من أجله وتتوقف لتتأمل حال الإنسان في المدينة الغربية، حيث تحضر الذاكرة لتفسد عليها رحلتها، وتشوه لحظات الألق التي تعيشها وحيدة شريفة في مدينة غريبة، ويتداخل السرد بين الحاضر والماضي، وبين الحلم والقلق من الذاكرة، فتسرد ذكرياتها مع (إبراهيم) بكثير من الأسى والتحدي في الآن معا، تقول: "كنا نتمشى في شارع بورقيبة الطويل، مجلنين بالصمت وغالبا ما كان يقف عند بائع الورد ويهديني الورد الحمراء".¹

تتذكر البطلة ما كان بينهما من حب وألق بينما هي في غرفة الفندق بمدينة بون، حيث تصر الذاكرة على استحضاره وتذكيرها بحبه الذي أرادت أن تتخلص منه من خلال رحلتها، فنقول "كان الألق نفسه يشع من عينيه، وكان الفتور يأخذني إلى اليأس، لما ركزت نظري اكتشفت عينين سوداوين في الزاوية تبرقان، ولم تكونا عيني إبراهيم".²

إن استرجاع الذاكرة للأحداث التي دارت بين البطلة وبين حبيبها وهي في مدينة بون جعل سرد الذاكرة متداخلا مع سرد الحاضر الذي تعيشه، وهكذا أصبح المكان/الفضاء هو الموجه لهذا السرد بل ويتداخل معه، على غرار ما نجد في قولها: "طلبت كأس ويسكي، لطخت قطع الثلج على جدران الكأس ثم ملأت فمي بالمشروب، تلمضته ثم تركته ينساب إلى أعماقي لأتطعم المرارة التي خلفتها. وأتساءل من أين سأدفع؟ - رحلتك حلم مجنون! رحلة بورجوازية، ونحن، من أين لنا بمال وفير يحقق رحلتنا؟ - لن تكون رحلة تسكع ومغامرة إذا كانت بورجوازية، لنسافر بما لدينا..وغدا أمر. أية رومانسية أنت!

يتداخل السرد في هذا المقطع بين الحلم والحقيقة والذكرى، فلا نكاد نفصل بين المتحدثين فيها، إلا من خلال المعنى العام للنص الذي يوحي بالفوضى الداخلية التي كانت تعيشها البطلة في قلب المدينة الغربية (بون)، فنتحول رحلتها من رحلة للتسكع والمتعة إلى محطات للذاكرة والحلم، وهذا ما وسع من دائرة الغربة الروحية التي أحست بها، وزاد ذلك مع إفلاسها وضياعاها بين في شوارع بون وحيدة.

¹ - الرواية، ص 69.

² - الرواية، ص 32.

خاصة حينما تتذكر صوت إبراهيم محذرا لها من السفر، قائلا لها: " لا تذهبي إلى هناك! قالها واضعا بذلك حدا لنقاشنا الطويل وحاسما موقفه من سفري، رفعت نظارته عن عينيه، تفحصت وجهه الذي بدا لي في تلك اللحظة باردا ومتكلسا، بعد صمت طويل تسكنت خلاله بذاكرتي في شوارع ميلانو وأكلت شكولاتة، قلت له: أحبك."

يتداخل السرد مرة أخرى وتتداخل معه أحاسيس البطلة وتختلط عليها، بشكل يوحي ببعض بالقلق وهي تصر على رحلتها، تتذكر كل الطرق التي جربتها لإقناعه بالسفر معها ، ولكنها عبثا تحاول، وفي الأخير تسافر بمفردها، متملصة من كل مسؤولية، لأنها أرادت أن تجرب المغامرة أن تتركب الحضارة بمال قليل وحرية أكبر. ولكنها تصطدم بواقع مغاير لما كانت تحلم به، واقع جعلها تعاود التفكير في مفهوم الحرية، وفي مفهوم العبث، هو نفسه الواقع الذي جعلها تقرر العودة إلى تونس، وإلى أحضان عائلتها.

خاتمة:

مثلت المدينة الغربية في رواية نخب الحياة لأمال مختار فضاء واسعا تعدد أوجه حضوره بين السلب والإيجاب، كما مثلت الرواية نموذجا مناسباً تتجلى من خلاله تأثيرات المدينة الغربية بخصائصها المتعددة في شخصية الفرد العربي ممثلا في شخص البطلة (سوسن عبد الله)، ما جعلها تخوض تجربة المغامرة بمفردها، غير مهتمة بعاداتها ولا أي شيء آخر، وفي هذا كسر لنظام العرف العربي، وهي بذلك تقدم صورة أكثر سلبية عن توحش الإنسان العربي وتمرده في الفضاء الغربي.

وعلى الرغم من ذلك نجد أن الكاتبة في الأخير وهي تحاول أن تعيد المفاهيم إلى أصلها، وذلك من خلال إعادة البطلة إلى موطنها الأصلي بعد أن جربت كل المتع ولحظات العبث والتسكع بأنواعه، فتغير نظرتها للحياة ولمفهوم الحرية التي لم تعد ترتبط بممارسة العبث والمحذور في أقصى درجاته.

المراجع والمصادر المعتمدة:

- 1- أمال مختار، نخب الحياة، دار الآداب، بيروت، ط1، 1993.
- 2- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1984.
- 3- نجمي حسن، شعرية الفضاء: المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2001.
- 4- خديجة البوعزاوي، شعرية المدينة، طنجة في المدينة المغربية، منشورات سليكي أخوين، ط1، 2017.
- 5- صالح ولعة، البنية المكانية في رواية (كراف الخطايا) دراسة سيميائية، ملتقى إشكالية الأدب في الجزائر، 26-28 أبريل 2005، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة.
- 6- حسين عبد الحميد، أحمد رشوان، مشكلات المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2005.
- 7- صلاح صالح، المدينة الضحلة، تريب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة السورية، وزارة الثقافة، دمشق 2014.
- 8- قادة عقاق، دلالة المدينة في الشعر العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
- 9- عماد الوردني، تمثيل الجسد والمدينة في رواية "جسد ومدينة" فنتة الإبداع والسؤال النقدي في تجربة زهور كرام، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، دط.
- 10- بوشوشة بن جمعة، شعرية المدينة الأوروبية في الرواية النسائية المغاربية، الحياة الثقافية، العدد 242، جوان 2013.
- 11- منيرة شرقي، الأبعاد الفنية والإيديولوجية للفضاء في رواية الزلزال للطاهر وطار، مجلة النص، أم البواقي.
- 12- مناف منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1978.